الكهانة

قلنا فيما تقدَّم ان الكهَّان يعرفون الغيبَ بوحيٍ من الشيطان ، فتلك هي الكهانة الأصلية عندهم ، وأصحابُها أوسع الكهانِ علماً وأعظمهم خطراً ، وأسماهم مقاماً ؛ ولكنَّ هنالك طُرقاً اخرى لمعرفةِ الغيب تختلف عن الكهانة الأصليـة في أسبابها وشروطها وكيفيّتها ؛ كالعرافة والعيافة والطرق بالحصى والحزو والتنجيم وكلها ضروبٌ من الكهانة الاَّ أن أهلها أقلُّ من الكهان علماً ، وأدنى منهم رتبة ، وهم نفسهم مراتب ودرجات . والعربُ يطلقون اسم الكاهن على العرَّاف ، والعائفِ ، والطارق بالحصى ، والحازي ، والمنجّم ، وعلى كل متكهّن يتعاطى الخبرَ عن الكائنات في مستقبل الزمان . وربما استعمـل بعضهم العرَّاف بمعنى الكاهن ، فيطلقهُ على كل متكهن

أما العرَّاف فهو الذي يعرف الأمورَ بمقدمات أسباب يستدلُّ بها على مواقعها من كلام مَن يسأله أو فعلهِ أو حاله . فعلـهُ قاصرٌ على معرفة الشيء المسروق وسارقهِ ومكان الضالة ، ودواء المريض ، ومواقع السحاب ، ونحو ذلك

وقد اشتهر من العرَّافين في الجاهلية رُباح بن كحلة(١) عرَّاف اليمامة ، والأبلق الأسدَي عرَّاف نجد ، وكان كلاهما في العصر الأخير من زمن الجاهلية . وأولهما هو المقصود بقول عروة بن حزام :

فقلتُ لعرَّاف اليمامة داوني　　　فانك ان داويتني لطبيبُ

واليهما معاً أشار الآخر في قوله :

جعلتُ لعرَّاف اليمامة حكمهُ　　　وعرَّاف نجدٍ ان هما شفياني

فقالا شفاك اللهُ واللهِ ما لنا　　　بما حملتْ منك الضلوع يدان

ومن اشتهر أيضاً بالعرافة هند صاحب المستنير الذي يقول عنهُ المسعودي انهُ

(١) هكذا في مروج الذهب وجاء في مقدمة ابن خلدون رباح بن عجلة

كان في غاية التقدم فيها ، وكذلك الأجلح الزهَري وعروة بن زيد الأسدي

وأما العائف فهو الذي يتكهن بواسطة العيافة ، وهي زجرُ الطير او الوحش ، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرّها . قال الأعشى :

ما تعيفُ اليوم في الطير الرَّوَح . من غراب البين أو تيسٍ بَرِح

وقال الفرزدق :

وليس ابنُ حمراء العجان بمفلتي ولم يزدجر طير النحوس الأشائم

وقال الاخطل يخاطب امرأة وسيمة تزوَّجها رجل دميم :

فهلا زجرت الطير ليلة جئته بضيقةَ بين النجم والدَّبران

وهو كثير في شعرهم . وهذا النوع من الكهانة أشهر أنواعها عندهم : ومنشأوه اعتقادهم باليمن والشؤم . فاليمين عندهم خير ، والشمال شرّ . ولذلك اشتقت لفظة التيامن واليمن والتيمن من اليمين ، كما اشتقت لفظة التشاؤم والشؤم من معنى كلمة الشمال ، لأن المشأمة في اللغة بمعنى الميسرة ، واليد الشؤمى والجانب الأشأم ، بمعنى اليد اليسرى والجانب الايسر . فلذلك الاعتقاد كان الرجل منهم اذا أراد حاجة أتى الطير في وكره فنفّره ، فان أخذ يميناً مضى لحاجته ، وان أخذ شمالاً ، رجع . وهذا هو الاصل في زجر الطير [1] . ومن ثم استعملوا كلمة الطيَرة بمعنى التشاؤم ، ثم أطلقوا الزجر على الوحش ايضاً ، وتوسعوا في كيفيـــة الزجر واحواله ، فقالوا : الزجرُ للطير وغيرها ، التيمنُ بسنوحها ، والتشاؤم ببروحها ، والاعتبار باسمائها واصواتها وممرّها . فلما صار كذلك اختلط أمره على العامة فأصبح ضرباً من الكهانة بعد ان كان اعتقاداً بسيطاً باليمن والشؤم ، فصار العائف ، اذا عاف طيراً او وحشاً ، يتكهن فيخبر بأمور من الغيب ، كما يفعل العرّاف . وربما عاف بالحدْس ، وهو لم يرَ شيئاً ، لا طيراً ولا وحشاً . وبقي التفاؤل والتشاؤم على بساطته الاصلية للعامة فقط

ومن القبائل التي اشتهرت بالعيافة في الجاهلية بنو أسد . قيل ان قوماً من الجن تذاكروا عيافتهم ، فأتوهم ، فقالوا : ضلّت لنا ناقة فلو ارسلتم معنا من يعيف ، فقالوا

(١) مقامات الحريري

لغُليّم منهم انطاق معهم . فاستردفه احدُهم ، ثم ساروا فلقيتهم عقاب كاسرةً احد جناحيها . فاقشعرّ الغلام وبكى . فقالوا مالك ؟ فقال كسرت جناحاً ، ورفعت جناحا ، وحلفت بالله صراحا ، ما أنت بانسيٍّ ولا تبغي لقاحا

وممن اشتهر بالعيافة من الاشخاص عبيدُ الراعي حدّث المنقريُّ عن العتبيّ قال : وقف عبيد ذات يوم مع ركب من ثقيف على نفر وكانوا يريدون استقصاء رجل من تميم ، اذ سنحت ظباء سود منكّرة ثم اعترضت الركب مقصرة في حضرها ، واقفة على شأنها ، فانكر ذلك عبيد الراعي ولم ينتبه اليه اصحابه فقال :

ألم تدرِ ما قال الظباءُ السوانحُ أطفنَ أمام الركب والركب رائحُ
فكبّرَ من لم يعرف الزجر منهم وأيقن قلبي أنهنَّ نوائحُ

ثم شارفوا مقصدهم ، فألفوا الرئيس قد نهشتهُ أفعى فأتت عليه . قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : وهذا من غريب الزجر . وذلك ان السانح مرجوٌّ عند العرب ، والبارح هو المخوّف ، وأظن عبيداً انما زجر الظباءَ في حالة رجوعها ، ووصف الحال الاول في شعره كما ان من شرط الواصف ان يبدأ بهوادي الاسباب ، فيوضح عنها فهذا هو وجه زجر عبيد الراعي في شعره

اما السانح والبارح فقد اختلف أئمة اللغة في تعريفهما . قيل السانح ما أتاك عن يمينك من ظبي او طائر او غير ذلك ، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك . وقال رؤبة : السانح ما ولاك ميامنه والبارح ما ولاك مياسره . وقيل : السانح الذي يجيءُ عن يمينك فتلي مياسره مياسرك . وقال أبو عمر الشيباني : السانح من جاء عن يمينك الى يسارك وولاك جانبه الايسر وهو انسيُّه . والبارح ما جاء عن يسارك الى يمينك وولاك جانبه الايمن وهو وحشيُّه . وقيل : بل السانح ما مرَّ بين يديك من جهة يسارك الى يمينك ، والبارح ما مرّ من يمينك الى يسارك . ولا يخفى ما في كل ذلك من المناقضة . وكذلك قال بعضهم : السنُح الظباء الميامين . وقال البعض الآخر : السنُح الظباء المياشيم

واكثرُ العرب يتيمنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح . ومن ذلك المثل « من

لي بالسانح بعد البارح » وأصله ان رجلاً مرّت به ظباء بارحة فتطيَّر من ذلك فقيل له : عسى ان تمرّ بك اخرى سانحة ، فقال المثل . وهو يضرب في توقع المحبوب بعد المكروه . وقال أبو دؤيب :

أربتُ لإربتهِ فانطلقتُ أرجّي لحبّ اللقاء سنيحا

وأنشد أبو زيد :

أقول والطير لنا سانحٌ يجري لنا أيمنهُ بالسعودِ

وأنشد الليث :

جرت لك فيها السانحات باسعدِ

وقال الشاعر :

أبالسنُح الأيامن ام بنحسٍ تمرُّ بهِ البوارحُ حين تجري

وقال ذو الرمّة :

خليليَّ لا لاقيتما ما حييتما من الطيرِ الا السانحات وأسعدا

وقال النابغة :

زعم البوارحُ انَّ رحلتنا غداً وبذاك تنعابُ الغرابِ الأسود

ومن العرب مَن يتيامن بالبارح ، ويتشاءم بالسانح ، قال الأعشى :

أجارَهما بشرٌ من الموت بعدما جرَى لهما طيرُ السنيح بأشأمِ

وبشر هذا هو بشر بن عمرو بن مرثد ، وكان مع المنذر بن ماء السماء يتصيد في يوم بؤسه الذي يقتل فيهِ أول من يلقاه . وكان قد أتى في ذلك اليوم رجلان من بني عمّ بشر فأراد المنذر قتلهما ، فسأله بشر فيهما فوهبهما له

وقال زهير متشائماً أيضاً بالسانح :

جرت سَنحاً فقلتُ لها أجيزي نوًى مشمولةً فمتى اللقاء

وقال كثيّر :

أقولُ اذا ما الطيرُ مرَّت مخيفةً سوانحها تجري ولا أستثيرُها

وقال عمرو بن قميئة :

فبيني على طيرِ سنيحٍ نحوسهُ وأشأم طير الزاجرين سنيحها

قال ابن بري : أهل نجد يتيمّنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح ، والعكس من ذلك عند أهل الحجاز . فهذا هو الأصل ثم قد يستعمل النجديّ لغة الحجازي ، والحجازي لغة النجدي ، أقول : والظاهر من كل ذكرناه ان جميع العرب يتيمنون بالأيامن ، ويتشاءمون بالأشائم ؛ وانما الخلاف واقع عندهم في معنى السانح والبارح لغةً . فقد رأيتَ ان السانح عند قوم على حسب تعريفهم له هو البارح عند غيرهم . وكذلك السنح عند قوم الظباء الميامين ، وعند غيرهم الظباء المياشيم ؛ فلذلك يتيامن هؤلاء بما تشاءم بهِ الآخرون فكانوا بذلك موافقين لهم في الحقيقة ، لأن الخلاف انما هو في الإسم لا في المسمّى

قلنا إن اصل العيافة هو اعتقادهم باليمن والشؤم وان اليمين عندهم خير ، والشمال شرّ . أما تفضيلهم اليمين على الشمال ، فقد جاروا فيهِ الطبيعة التي جعلت الأعضاء اليمنى من جسم الانسان أقدر من اليسرى وأقوى . وجاراهم في ذلك التفضيل جميع الشعوب . فكان المحل الأيمن أفضل المحلين ؛ وبذلك قضى الله نفسهُ اذ جعل اليمينَ لأهل الجنّة ، والشمال لأهل النار ، وجعل لكل رجلٍ ملكاً عن يمينهِ ، وشيطاناً عن شماله . وقد جاء في صحيح البخاري ان النبيّ كان يحب التيمن ما استطاع في شأنهِ كلهِ في طهوره وترجله وتنعلهِ

وأما الطارق فهو الذي يتكهن بواسطة الطرْق بالحصى ، وذلك ان يخطّ في الأرض أو الرمل خطوطاً باصبعين ، ثم باصبع ، ويقول : ابني عيَان أسرعا البيان ثم ينبيء عما سئل عنهُ . وربما يكون النداء لابني عيان في العيافة أيضاً وفي غيرها من ضروب الكهانة . واكثر كهان الطرق من النساء . قال لبيد :

لعمركَ ما تدري الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

وقيل الطرقُ ان يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن . والظاهر ان الطرقَ في الأصل كان بالحصى ، ثم توسع فيهِ بعضهم الى القطن والصوف ، وبقي الإسم على أصله . ومن أمثال العرب التي تُضرب للذي يخلط في كلامهِ ، ويتفنن فيهِ ،

قولهم : اطرقي وميشي . قال رؤبة :

عاذلَ قد أُولعتِ بالترقيشِ اليَّ سرًّا فاطرقي وميشي

وفي لسان العرب : الطرق في الأصل هو ضرب الصوف بالعصا ، والميش خلط الشعر بالصوف

وأما الحازي فهو الذي يتكهن بواسطة الحزو ؛ وهو ان ينظرَ في الأعضاء والغضون وخيلان الوجه فيتكهن . قال الشاعر :

وحازيةٍ ملبونةٍ ومنجّسٍ وطارقة في طرقها لم تسدّد

قال ابن شميل : الحازي أقلُّ علماً من الطارق ، والطارق يكاد يكون كاهناً ، والحازي يقول بظنٍّ وخوف

والعرب يستعملون لفظة الحزو بمعنى الزجر أيضاً فيقولون : حزَونا الطير نحزوها حزواً ، أي زجرناها زجراً . قال ابو زيد وهو عندهم ان يَنعِق الغرابُ مستقبل رجل ، وهو يريد حاجة ، فيقول : هو خير ، فيخرج او ينعق مستدبره فيقول هذا شرّ فلا يخرج وان سنح له شيء عن يمينهِ تيمن بهِ ، او سنح عن يساره تشاءم بهِ ، فهو الحزو والزجر

وأما المنجّم فهو الذي يتكهن بواسطة التنجيم . وذلك ان يرعى النجوم بحسب مواقيتها وسيرها ليعلم منها احوال العالم . وفي كتب اللغة علم النجوم عندهم علم يبحث فيهِ عن احوال الشمس والقمر وغيرهما من الكواكب . وموضوعه النجوم من حيث يمكن ان تعرف بها احوال العالم . ومسائله هي كقولهم : كلما كانت الشمس مثلاً على هذا الوضع المخصوص فهي تدلّ على حدوث امر كذا في العالم

والاصل في هذا الضرب من الكهانة أنهم كانوا يعتقدون ان كل ما يحدث في هذا العالم من الحوادث انما سببه النجوم من حيث سيرها ومنازلها وأنوائها واقترانها الى غير ذلك من احوالها ومظاهرها . فنسبوا اليها البرد والحر والصحو والمطر والخير والشر والصحة والمرض والحرب والسلم والسعد والنحس ، وهو الاعتقـاد الذي جعلهم يعبدونها في القِدَم . فلما وُجد عندهم ذلك الاعتقاد أخذوا يلاحظون النجوم

ويراقبونها ويلاحظون سيرها ومواقيتها حتى اذا حدث في الأرض حادث ما في زمن ما ، ثم عاد الفلك الى هيأتهِ التي كان عليها حين وقع ذلك الحادث ، أنبأوا بعوده ايضاً بناءً على ان الاسباب الواحدة ، في حالة واحدة ، تُنتج دائماً نتائج واحدة . فهذا هو الاصل في علم النجوم . ثم اتخذه بعضهم طريقةً لكسب المـال فجعلوه ضرباً من ضروب الكهانة ، وصاروا يخبرون بما يخبر بهِ الكهّان من احوال الغيب المختصة بافراد الناس ، كتفسير الاحلام ، وادواء الامراض ، ونجاح المسعى ، وما أشبه ذلك . واعتقدت عامة الشعب ان كل شيءٍ سرُّه في النجوم ، وان الانسان قد يعلم الغيب بالوحي الفلكي . فمن ثم قالوا في كلامهم : نظر فلان في النجوم ، بمعنى انه فكّر في أمر ينظر كيف يدبّره . فصار ذلك في اللغة [1] كما تقول : بفلان جُنَّة ، بمعنى انه مختلّ العقل . وهـذا من شواهد تأثير اعتقاد الشعوب في لغاتهم وهو كثير في اللغة العربية

تلك هي أشهر ضروب الكهانة في الجاهلية . فاذا كان عندهم ضروب اخرى فلا عبرة بها لعدم شهرتها بينهم ، فضلاً عن انها لا بد ان تكون مأخوذة من الضروب الاصلية التي أتينـا على ذكرها كما أُخذ الطرقُ بالقطن والصوف من الطرق بالحصى

ولم يكن للكهّان صفة دينية اصلاً ، بخلاف الكهنة عند اليهود . ولعل السبب في ذلك كون وحيهم من الشيطان ، ووحي كهنة اليهود من الله . وكان أهل الرتبة العليا منهم ينقطعون الى الكهانة فلا يشتغلون بعمل آخر ، ولا يشتركون مع القبيلة اشتراكاً مادياً في شؤونها العموميـة بل كانوا يعيشون عادة محتجبين عن ابصار العامة ، الا يخالطهم أهلهم وذووهم ، ولا يقابلهم من الناس الا مَن قصدهم ليستطلع

(١) جاء فى القرآن الشريف عند الكلام على ابراهيم : « فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم » قال الليث : يقال للانسان اذا تفكر فى امر ينظر كيف يدبره، نظر فى النجوم قال : وهكذا جاء عن الحسن فى تفسير هذه الآية ، أى تفكر ما الذى يصرفهم عنه اذا كلفوه الخروج معهم (لسان العرب)

منهم الغيب . وكان معاشهم من الهدايا التي يقدمها لهم أولو الحاجات . وكان العرب يحترمونهم لعلمهم وسعة اطلاعهم ، وربما احترموهم بسبب علاقتهم ذاتها بالجنّ والشياطين . وبناء على ذلك الاحترام كانوا يسمون كل صاحب علم دقيق كاهناً كالطبيب والقُناقِن وهو البصير بالماء تحت الارض وكذلك كل حكيم بصير بالامور . وقد جاء في الحديث ان شريحاً كان زاجراً شاعراً . وفي حديث ابن سيرين : ان شريحاً كان عائفاً . أراد انه كان صادق الحَدْس والظن ، لا انه كان يفعل فعل الجاهلية في العيافة . ومن المحتمل ايضاً ان تكون تسميتهم للطبيب والقناقن كاهناً من قبيل الحقيقة في لغتهم لا المجاز ، لان الجهل كان مخيماً على عقول عامتهم ولا فرق عند الجاهل بين من ينذر بموت رجل ، حيث لا ترى العامة شيئاً من الخطر ، او ينذر بخوف قبل حصوله ، وبين من يخبر بمكان الضالة ، او تفسير الاحلام ، فكلا الامرين عند الجاهل من قبيل معرفة الغيب . وبناء على ذلك لا يبعد ان يكون قد دخل عندهم في عداد الكهان كثيرون من الاشخاص الذين كان لهم المام حقيقي بالطب والفلك او غير ذلك من العلوم

ولم تزل الكهانة في الجاهلية الى ان جاء الاسلام فابطلها . وقد اوردنا كلام الأزهري في هذا الخصوص . وجاء في الحديث أنهُ نهى عن حلوان الكاهن ، وعن الطيرة . وفي الحديث ايضاً من أتى كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد . قالوا أي من صدّقهم

وجاء في صحيح البخاري انهُ كان لابي بكر غلام يخرج له الخراج وكان ابو بكر يأكل من خراجه . فجاء يوماً بشيء فأكل منهُ ابو بكر فقال له الغلام : تدري ما هذا ؟ فقال ابو بكر وما هو ؟ قال كنت تكهنت لانسان في الجاهلية وما احسن الكهانة ، الاّ اني خدعته فلقيني فاعطاني بذلك فهذا الذي اكلت منه . فادخل ابو بكر يده فقاء كلّ شيء في بطنه

على اننا بالرغم عما جاء به الدين ، لا نزال نرى حتى الآن سوق الكهانة رائجة في كل بلاد نطق اهلها بالضاد ، كأنّ الجهل يأبى الاّ ان يكون محفوفاً ابداً بانواع

الخرافات ، او كأن خرافات الجاهلية ملازمة للفتهم ، لا تنفصل عنها ، فورثناها معها. وكأني بنا قد خجلنا من وقوفنا عند الحد الذي وصلت اليه اجدادنا ، فبعد ان كانت الكهانة على نحو ما ذكرناه في هذا الباب ، جعلناها نحن علماً بل علوماً باصولٍ ذات قواعد وروابط وشروط . وألّفنا فيها الكتب العديدة ، وأضعنا فيها الوقت الثمين ، وزدنا عليها ضروباً وانواعاً لم تكن معروفة في الجاهلية اصلاً فافسدنا عقول الشعب بالاوهام والاكاذيب . وقد كان عدد الكهان في الجاهلية قليلاً بحيث لا يصيب العشرَ القبائل كاهن واحد ، وأما الآن فلا شارع من شوارع مدننا الاّ وفيه الرمّال والحاسب والحازيه ، وباصر البخت ، وضارب المندل ، وكلُّ دجّال خدّاع ، يسلبون فقراء الناس اموالهم عاجلاً ، ويعدونهم بالسعادة آجلا . نعم ان الكهانة ممنوعة بامر الحكومة في بلادنا ، ومعاقب عليها في قوانيننا ، ولكن اخلاق الشعب ورجال الضبط والربط بالجملة لم تزل على حالتها الاصلية ؛ وربما تعجبوا من وجود مثل ذلك النصّ في قوانين الحكومة وأنكروا عليها معارضتها لأناس يعلمون الغيب ويخدمون الناس باطلاعهم على أسرار المستقبل . ولذلك تراهم يغضون الطرف عنهم فلا يتعرضون لمنعهم . وقد رأيتُ مرّةً احد رجال البوليس انحرف عن قارعة الطريق قاصداً احد الرمّالين ، فظننتُ انهُ ذاهب لمنعه من نشر بضاعته في الشارع العمومي واثبات مخالفته للقانون ، ولم اكن اظنّ في أمثاله ذلك الترقي الأدبيّ . فأخذني العجب وأتبعتهُ بنظري ؛ فاذا هو وقد جلسَ بين يدي الرمّال ، وأخذ يستطلع منهُ الغيب ، ويسمع شقشقتهُ بغاية ما يكون من الجد والاحترام

اسكندر عمون

في الادارة مجموعة « الزهور » عن سنتيها الاولى والثانية
وثمن المجموعة الواحدة مجلدة خمسون غرشاً